الباب الخامس

بعض ملامح من توجهات الشيخ الظواهرى السياسية

(١)

كان الشيخ الظواهرى حريصًا على أن يشير إلى مشاركته المبكرة فى الحركة الوطنية وثورة ١٩١٩، وهو يشير إلى أنه افتتح الاكتتاب للوفد المصرى فى طنطا بخمسين جنيهًا، وأنه سارع بهذا الاكتتاب كى ينهى الخلاف حول مبدأ الاكتتاب، وكان هذا مبلغًا كبيرًا فى ذلك الوقت، كما يذكر أنه خرج من نادى طنطا على رأس مظاهرة كبرى بجانب أحد رجال الدين الأقباط:

«... لما قامت الثورة المصرية فى سنة ١٩١٩ من أجل الاستقلال، نفى البريطانيون سعد زغلول باشا زعيم الحركة وبقى منفيًّا عدة شهور، ثم وردت الأنباء بالإفراج عنه ففرح الناس، ورأيت من واجبى أن أزور نادى طنطا فى ذلك الوقت لأشترك فى فرح الناس، فقام الأستاذ عبد القادر مختار مأمور مركز كفر الشيخ وقتئذ واقترح الاكتتاب للوفد بالأموال، فاعترض الدكتور زكى الكاشف وكادت تقوم مشادة وانقسام، واتفق أن كان معى ورقة بخمسين جنيها فانتهزت الفرصة وقلت: إننى أحبذ فكرة الاكتتاب وأقدم هذه الورقة إليكم لتكون فاتحته، وكان الدكتور حسن بك كامل رئيس النادى فشكرنى وتتابع الناس بمبالغ مختلفة، ثم بعد خروجنا من النادى كانت هناك مظاهرة كبرى فاشتركت فيها مع فريق من العلماء، وسرت فيها بجانب القسيس القبطى إشارة إلى الاتحاد فى الوطنية».

. . . . . .

وفى موضع آخر يشير الشيخ الظواهرى إلى اضطلاعه أو مشاركته فى استقبال سعد باشا زغلول فى طنطا :

«وعندما عاد سعد من المفاوضة قابلته الأمة بترحاب عظيم فى يوم مشهود هو يوم ٤ أبريل سنة ١٩٢١ ، فرأيت من واجبى الوطنى بصفتى رئيس الدين بطنطا أن أشترك فى الاحتفال به ، فقابلته مع آلاف المستقبلين بمحطة طنطا وأهديته مصحفًا شريفًا ونسخة من صحيح مسلم إشارة إلى ترسم خطى الرسول فى الجهاد» .

(٢)

ونحن نجد فى أفكار الشيخ الظواهرى السياسية بعضًا من المثالية النظرية غير القابلة للتطبيق ، وهو يذكر بكل وضوح أنه كان من أنصار أن يتفق الزعماء فيما بينهم (ولا ندرى كيف يكون هذا الاتفاق) بدلاً من أن تفرض الجماهير تأييد هذا أو ذاك ، وهو يعترف أن بيته رجم بالحجارة بسبب موقفه السلبى :

« . . . عندما اختلف سعد زغلول وعدلى يكن على رئاسة الوفد الذى يسافر للمفاوضة فى استقلال مصر ، وكان لكلٍّ منهما أنصار من الشبان . . . كنت أرى أن الخلاف هو أساس الفساد فى الشرق ، فلما حضر لى الطلبة والشبان من أنصار سعد لأمضى بسقوط عدلى ومن أنصار عدلى لأمضى بسقوط سعد ، رفضت طلب الاثنين ، وقلت : إن هذه المسألة يجب أن يسويها الزعيمان فيما بينهما اختياراً لا إكراهًا ، فهذا أكرم لمصر ولهما ، ولكن كلامى هذا لم يعجب الفريقين من الشبان فرمى الفريقان فى غضبهما منزلى بالطوب ، لكنى لم أتأثر لمعرفتى بنزعات الشباب» .

(٣)

يعترف الشيخ الظواهرى فى براءة ظاهرة وباطنة أنه كان دائمًا من أنصار

الحرص على البعد عن الاضطرابات السياسية الداخلية، وعلى الدعوة إلى التضامن بين الأحزاب، وهو يشير إلى دوره فى إصدار بيان الأزهر الشهير الذى دعا الجماهير إلى تجنب الصراع السياسى فى أثناء حكم وزارة صدقى باشا فى مطلع الثلاثينيات، ونراه حريصًا على ألا يتضمن هذا البيان تأييدا صريحًا لصدقى باعتباره ولى الأمر، ونراه وهو يعتقد فى نجاحه فى إبراز هذا المعنى من خلال نص صريح على أن ولى الأمر هو الملك فؤاد، وكأنما كان صدقى مأمورًا بشخص آخر غير الملك فؤاد!! وهو حريص أيضًا على أن يستوفى لبيان الأزهر كل الشكليات التى تنبئ عن تمثيله لجموع العلماء، وهو معنى دقيق، لكنه فى الواقع لا يعنى أكثر من الشكل الظاهرى.

لكننا مع كل هذه الأفكار التى تبدو بعيدة عن الواقع كله نجد الشيخ الظواهرى على وعى تام بطبيعة النظام الحزبى ونجده أيضًا واسع الصدر تجاه هجوم رجال السياسة عليه وعلى سلوكه:

«وعندما أعد النداء لاحظت أنه يستند إلى الآية الشريفة ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ [النساء: ٥٩] مما قد يشعر فى تلك الظروف أننا نصف إسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء بأنه ولى الأمر فى مصر، لذلك فقد أصررت على أن تضاف للنداء بعد هذه الآية العبارة الآتية: «وقد منّ الله على هذه الأمة بأن جعل ولى الأمر فيها الملك فؤاد»، وذلك لكى لا يتطرق لأى ذهن أننا نريد بهذه الآية أى أحد آخر وليّا للأمر غير جلالة الملك فؤاد، وقد اشترك فى وضع النداء معى الشيخ عبد المجيد سليم مفتى الديار المصرية وقتئذ، والشيخ عبد اللطيف الفحام وكيل الجامع الأزهر، ورأينا أن يصدر من مشايخ المذاهب فأمضيته أنا باعتبارى شيخ المذهب الشافعى، وأمضاه الشيخ عبد المجيد سليم باعتباره شيخ المذهب الحنفى، وأمضاه الشيخ أحمد نصر باعتباره شيخ مذهب المالكية. وقد كان هذا النداء سببًا لحملة سياسية كبرى ضد الأزهر من الأحزاب

المعارضة لإسماعيل صدقى باشا، مع أن هذا النداء لم يتعرض مطلقًا للمسائل السياسية المتنازع عليها بين الأحزاب، وإنما كان يدعو فقط للهدوء اجتنابًا لسفك الدماء كما قدمنا».

«وقد قابلنا وقتئذ هذه الحملات الصحفية الحزبية الشديدة بصدر واسع لعلمنا بطبيعتها أولاً، وأيضًا لتجنب الدخول مع الأحزاب السياسية فى الجدل والمناقشة، فقد كنت أرى أن مثل هذه المناقشة تجر رجل الأزهر للسياسة حتمًا، وهذا ما كنت أتحاشاه دائمًا على قدر الإمكان».

(٤)

ومع كل هذا التجافى عن السياسة، فإن الشيخ الظواهرى يدلنا على أنه كان يتمتع بالقدرة على المجاملة ومدح أولى الأمر على حسن صنيعهم للأزهر والأزهريين، ومن ذلك ما يرويه عن دوره فى زيادة مرتبات العلماء فى أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم فى شكر رئيس الوزراء بالشعر على هذا الصنيع:

«ولما عرض الموضوع على مجلس الأزهر الأعلى، وقد صرت عضوًا استشاريًا به كما أخبرتك، أخبرت المجلس بمجهوداتى فى ذلك عند رئيس النظار، وحينئذ اقترح حسن صبرى باشا أحد أعضاء المجلس أن نذهب جميعًا لرئاسة مجلس النظار للشكر، وكان رئيس النظار رشدى باشا، فلما دخلنا وكان معنا الشيخ سليمان العبد، وكان يقول الشعر، سمعت رشدى باشا يقول له عند مصافحته: «أهلا بشاعر العلماء، هذا هو يومك».

«ولكن يظهر أن الشيخ سليمان العبد لم يكن مستعدًا، وهنا خطر لى أن أفكر فى بيتين أقولهما إذا كان الشيخ سليمان لا يقول شيئًا، فبعد تناول القهوة تبين أن الشيخ العبد لم يفكر فى الشعر، فتوجهت لرشدى باشا، وقلت:

نلنـــا بخيـــر رئيـس　　　فـى مصـر أعظـم قصـــد

فالـــدين يــدعو ليحـــيا　　　سـلطان مصـــر ورشـدى

«فسرّ الحاضرون، ثم نقل رشدى باشا هذه الواقعة للسلطان حسين فسرّ أيضًا منها».

(٥)

يتحدث الظواهرى عن اختياره عضواً فى مجلس الشيوخ، ويذكر بأنه عرف بالنبأ من الصحافة، وأنه قيل له إن الدولة أخذت فى هذا التعيين بالتقاليد البريطانية، ويشير إلى بعض الفوائد التى حققها وجوده فى هذا المجلس وإلى رياسته للجنة الأوقاف والمعاهد الدينية وإلى دعوته إلى إقامة المسجد الضخم الذى أقيم فى ساحة المجلس كما يشير إلى أنه هو والمفتى كانا يتركان مقعديهما فى المجلس عند عرض أى موضوع يعتقدان أنه ينافى أحكام الدين، كالأرباح المالية (يقصد أرباح البنوك التى لا تخلو من شبهة الربا فى اعتقاده):

« . . . استيقظت صباح أحد الأيام فوجدت اسمى منشوراً فى الجرائد ضمن أسماء أعضاء مجلس الشيوخ المعينين، ورأيت أيضًا اسم بطريرك الأقباط وحاخام اليهود واسم الشيخ عبد المجيد سليم مفتى الديار المصرية، فلما سألت كيف لم يؤخذ رأيى فى مثل هذا الموضوع قبل إتمامه قيل لى إن التعيين حصل بحكم الوظيفة، ففى بريطانيا يصير الرؤساء الدينيون أعضاء بمجلس اللوردات بطريقة آلية بمجرد تعيينهم فى وظائفهم، وقيل لى إنه رؤى اتباع نفس المبدأ فى مصر فعين شيخ الإسلام والبطريرك والحاخام وهم رؤساء الأديان الثلاثة أعضاء بمجلس الشيوخ، ورؤى أن يضاف المفتى أيضًا ليكون تمثيل الإسلام بعضوين بدلاً من واحد نظراً لأن الإسلام هو دين الأغلبية».

«وبهذه المناسبة فإنى ألاحظ أن وجود رئيس الدين الإسلامى فى مجلس الشيوخ لا يخلو من فائدة، فقد تمكنت أثناء وجودى به من بث الروح الدينية بالمجلس، فكنت أطلب رفع الجلسة دائمًا للصلاة عند حلول موعدها، كما طلبت إنشاء مسجد فخم يقام فى ساحة البرلمان ليؤدى الأعضاء المسلمون فيه الصلاة فأنشئ هذا المسجد فعلاً وهو قائم الآن فى ساحة البرلمان».

«ثم بانتخابى رئيسًا للجنة الأوقاف والمعاهد الدينية فى مجلس الشيوخ تمكنت من الإشراف العملى والتشريعى على هذه الجهات الدينية».

«ثم تمشيًا مع فكرة بث الروح الدينية فى المجلس فإنى مع المفتى كنا دائمًا نترك مقعدينا ونخرج من المجلس إذا ما عرض شىء ينافى أحكام الدين كما فى مسائل الأرباح المالية مثلاً، فقد كنا نرى أننا مادمنا غير قادرين على دفع هذه المبادئ غير الشرعية التى تغلغلت فى النظام الحكومى، فلا أقل من انسحابنا وقت عرضها ونظرها لئلا نكون مقرين لها، وفى هذا المسلك على بساطته إذكاء لروح الدين».

(٦)

يشير الشيخ الظواهرى فيما يرويه عنه نجله إلى أنه كان مرشحًا لرياسة بعثة الحج المصرية فى العام التالى لتولى السلطان حسين السلطة، لكنه اعتذر للسلطان عن قيامه بهذه المهمة نظرًا لما كان يخشاه من أن تكون بعثات الحج فى ذلك العام سبيلاً إلى الاعتراف بالشريف حسين (شريف مكة) خليفة للمسلمين حسبما شاع فى بعض الأوساط، ويذكر الشيخ الظواهرى أنه ناقش السلطان فى هذا المعنى فنفاه له، كما يذكر أنه رشح للسلطان مجموعة أخرى من المشايخ هم الشيخ النجدى، والشيخ الطوخى، والشيخ بخيت، وأنه تصادف أن محمود شكرى باشا رئيس الديوان استدعاه ليستشيره فى تعيين خليفة للسيد البدرى بعد وفاة

الشيخ مصطفى الخليفة، وتصادف أن كان المشايخ الذين رشحهم فى انتظار مقابلة الخديو، فأدخل معهم إلى السلطان، ولما طلب السلطان رأى الشيخ بخيت قال: إنه يرشح الشيخ الظواهرى، وهو ما اعتبره الظواهرى توريطًا فى قالب المديح.

ويروى الظواهرى أن الشيخ بخيت أشاع أن السلطان غاضب على الظواهرى وأنه ينوى رفته أو نقله إلى معهد صغير.

كما يروى أن الشيخ الخضرى ومعه علماء آخرون قاموا بمهمة البعثة، وعادوا دون أن تثار مسألة الخلافة.

وهو يروى أنه دعى إلى الإفطار على مائدة السلطان حسين فى رمضان:

«... وكان معى على المائدة الشيخ حسونة، والشيخ سليم البشرى، وكان شيخ الجامع الأزهر، وبعض من الأمراء والوزراء، فبعد تناول القهوة أخذ يتحدث إلينا السلطان عن انقلاب الحكم فقال: إنه لا يرى معنى لتعليق المصريين بتركيا إلى هذا الحد، وتساءل: ما هى علاقة مصر بتركيا؟ ولماذا كل هذا الشغف من جانب المصريين بها، سواء من الوجهة الدينية أو الوطنية؟! والحق أن جميعنا لم نفهم فى ذلك الوقت المناورة السياسية التى كان يرمى إليها السلطان. فمن الجهة الدينية كانت بيننا وبين تركيا علاقة مقدسة هى وجود الخلافة فيها، وكفى ذلك سببًا لتعلق المصريين بها، أو على الأقل للعطف عليها، وأما من الجهة الوطنية فإن تركيا لم تعتد علينا ولم ينشأ بيننا وبينها ما يوجب عداءها، فلما قال السلطان ما قال، صمت العلماء ولم يرغب أحدهم أن ينطق بكلمة لا محبذًا كلامه ولا مناقشًا له، وعندئذ بدأت أنا الكلام فقلت: إن المصريين يا مولاى معذورون فى عدم معاداة الأتراك، فإنهم فى الحقيقة حيرى بين صديق ووالد، أما الصديق فهو إنجلترا وأما الوالد فهو تركيا، وفيها خليفة المسلمين، وكفى أن

المصريين لم يقوموا بعمل إيجابى، فسكوتهم هذا هو فى نفسه مجاملة للانقلاب».

«عندئذ بدا على السلطان الغضب، فنظر إلىّ وقال: مَنْ الذى أدخل الإنجليز فى مصر؟ يريد التلويح إلى أن الأتراك هم الذين تسببوا حقيقة فى ذلك، فقلت: هذا معلوم يا مولاى والماضى لا يعاد، ثم أردت أن أطوى الكلام لما رأيت من غضب السلطان، فقلت: وعلى كل حال فالمصريون معذورون يا مولاى، فاشملهم برضاك، ولا تغضب عليهم، فأنت الآن أبوهم، فنهض السلطان ونهضنا وانصرفنا من السراى، وركبت مع الشيخ قراعة إلى منزله، فقال الشيخ قراعة لى: هذا أمر جلل، وإنى أخاف عليك، لطف الله بك، فقلت: أنا قلت ما رأيته والله الحافظ، وقد كنت مخلصًا له فى كلامى، وكفانى بذلك إرضاء لضميرى!».

(٧)

ويروى الظواهرى بسعادة بالغة كيف أنه لم يخسر شيئًا نتيجة موقفه الواضح وتصريحه برأيه أمام السلطان حسين.

«وفى نفس الليلة زرت الشيخ حسونة النواوى فى منزله، فقال: لله درك فى صراحتك وشجاعتك، ولا تؤاخذنى فيما كان منى من قبل عندما عارضت فى تعيينك وكيلاً عن والدك عندما كان مريضًا فى سنة ١٩٠٧، فلو كنت أعلم عنك وقتئذ تلك الخصال القوية لما ترددت فى الموافقة».

وهو يروى أنه قابل السلطان حسين بعد يومين، وأنه قال له:

«... لقد كنت صريحًا جدّا فى كلامك بالإفطار، وأنا أنصحك ألا تعود لمثل هذا الكلام الذى قلته، فأنت تعلم أن تركيا فى حالة حرب مع الإنجليز، وكلامك

هذا يغضب الإنجليز، وقد تجد نفسك منفيّا فى مالطة فانتبه، وأنا لا ألومك وأنا معذور أن أكون هكذا، فالسياسة تقضى بذلك لكى لا تضر مصر بشىء».

«فشكرته وانصرفت».

* * *

ومجمل رأى الشيخ الظواهرى فى السلطان حسين أنه كان «رجل خير، وأنه كان للمصريين كالوالد لا يريد إلا مصلحتهم، وأنه إن هو كان أحيانًا عصبى المزاج، أو شديد الكلام، فما كان ذلك ليدل على شىء ردىء فى نفسه، أو سوء يضمره فى قلبه، بل هى مجرد نزعات سرعان ما تنقضى، ثم يتبعها صفاء وانشراح».

* * *